النار المقدسة

للكاتب الانجليزي ولتر سكوت

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

ولو أن بارونات أرنهيم كانوا يهتمون أبا عن جد بالعلوم الروحانية إلا أنهم كباقي النبلاء الألمان حربيون مولعون بالصيد . تلك الصفات كانت ممثلة في البارون هرمن دارنهيم جد آن دوجيرستين لأمها ومن كان يفخر بأنه يملك أفخم الاصطبلات وأكرم جواد للسباق في ألمانيا ، وإني أترك وصفه وأكتفي بالقول بأنه أسود كالسبج (حجر كريم أسود) وليس به شعرة واحدة بيضاء لا في جبهته ولا في أرجله . ولهذا السبب ولكونه جاد الطبع أسماه صاحبه (أبوليون) هذا مما زاد الاشاعة الدائمة عن بيت أرنهيم تأكيداً لأن البارون أطلق اسم أحد الشياطين على جواده .

وفي ذات يوم من نوفمبر ذهب البارون إلى الغابة ليصطاد ولم يرجع إلا عند ما خيم الظلام ولم يجد شيئاً جديداً في القصر أو زائراً غريباً . لأن البارونات ما كانوا يقابلون في قصورهم غير من يتوسمون فيه العلم والمعرفة ليزيدوا معلوماتهم .

كان البارون جالساً وحده في بهوه وبيده كتاب لا يستطيع هو أو غيره أن يقرأ حروفه ، وكانت يده الأخرى متكئة على مائدة من الرخام وعليها زجاجة من نبيذ توكي ، وفي آخر هذه الغرفة يرى حاجب واقفاً وقفة احترام ، وقد ساد السكون ولم يسمع غير زفيف رياح الليل كأنها تئن بنغمة محزنة حينما تمر بعيون الزرود الصدئة والأعلام الممزقة التي يتكون منها آيات هذا القصر الذي بني في عهد الاقطاعيات .

وعلى حين غفلة سمع وقع أقدام سريعة على السلم وكأنه يرتعد ، ثم فتح الباب بعنف وظهر جسبار رئيس اصطبلات البارون والرعب باد على وجهه وهرول إلى منضدة سيده وهو يصيح :

— سيدي! سيدي! إن شيطانا في الاصطبل.

— ما معنى هذا الجنون؟ ثم وقف البارون واستاء من هذه المقاطعة .

— إنني أكون في حل من عاقبة غضبك إن كنت أقول غير الحق ، وإن ابوليون . . .

ثم سكت لحظة

— تكلم أيها الأحمق فان الرعب قد أفقدك صوابك! هل أصاب جوادي مرض أو وقع له حادث ؟

وكل ما استطاع أن يتفوه به أن كرر (أبوليون)!

— وإذا كان (أبوليون) موجوداً فلا داعي لكل هذا الفزع

— إن الشيطان بجانب أبوليون

— يا لك من معتوه. ما الذي ذهب بحجاك. إن رجالا مثلك ولدوا ليقوموا بخدمتنا يجب عليهم أن يتغلبوا على كل صعوبة. ثم قام واتجه إلى الاصطبلات وكانت في الطرف الأخير من القصر وبها خمسون جواداً للسباق من كرام الخيل مربوطة على صفين وبجانب كل جواد أسلحة الهجوم والدفاع بحالة جيدة . دخل البارون وخلفه خادمان وهو دهش من هذه الاستغاثة الغريبة وسار بين صفي الخيل إلى

أن اقترب من جواده المفضل الذى كان فى طرف الاصطبل فلم يصهل الجواد ولم يحرك رأسه ولم يضرب برجليه كعادته حينما كان يعبر عن فرحه بمقدم سيده، بل اكتفى بالأنين كأنه يستغيث بسيده. رفع هرمن مشعله، فوجد رجلا كبيرا متكئاً بيده على كتف الجواد

— من أنت ؟ وماذا تصنع هنا ؟

— أبحث عن ملجأ وضيافة، أتوسل إليك بكتف جوادك وفرند سيفك، جعلهما الله لك عوناً على الشدائد !

— إنك إذن من إخوان النار المقدسة، ولا أستطيع أن أرفض طلبك احتراماً لمذهب السحرة القدسى. إنك تطلب حمايتى خوفاً من، ولاية مدة ؟

— خوفاً من الذين سيبحثون عنى هنا قبل صياح الديك، لمدة سنة ويوم تبدأ من هذه الساعة.

إن قسمى وشرفى لا يسمحان لى بالرفض، وسأحميك، وسيكون قصرى مأواك وستجلس إلى مائدتي وتشرب نبيذى، كما أنك يجب عليك أن تحترم أوامر زرادشت إذ قال : « فليحم القوى الضعيف » كما قال أيضاً : « فليعلم الحكيم من هو أقل منه علماً » .

إننى القوى وستكون فى حمايَ، وأنت الحكيم ويجب عليك أن تعلمنى الأسرار الخفية

— أريد أن تلهو على حساب خادمك، وإذا كان دانيشمند يعرف شيئاً يفيد هرمن فان تعليماته تكون كتعليم الوالد لولده

— أخرج إذن من مخبئك؛ وإنى أقسم بالنار المقدسة التى تعيش بدون إسعاد أرضى وبالاخاء الذى يسود بيننا، وكتف جوادى، وفرند سيفى لأحميك عاماً ويوماً بقدر ما تسمح به سلطتي .

خرج الغريب من الاصطبل ولم يدهش الذين شاهدوا زيه الغريب كثيراً مثل ما فزع منه جسبار حينما رآه فى الاصطبل دون أن يعلم من أين دخل . وحينما أدخله البارون إلى البهو وتلقاه بترحاب واحترام . وقد لاحظ فى ضوء المشاعل أنه رجل طويل القامة يلبس ثياباً أسيوية أى قفطاناً أسود كالذى يلبسه الأرمن وقلنسوة مربعة عليها عمامة سوداء من صوف اصطراخان، وكانت ملابسه جميعها سوداء، وقد تدلت على صدره لحية بيضاء فزادت وضوحاً وسط هذا السواد، وبوسطه حزام من حرير أسود علق به خنجراً وسيفاً قصيراً مقوساً فى غمد من الفضة، وكان متحلياً بخاتم من الياقوت كبير الحجم تتلألأ منه أشعة لطيفة . ثم قدم له البارون الحلوى والمرطبات فقال له :

— لا أستطيع أن أكسر لقمة أو أضع نقطة من الماء فوق شفتى إلا بعد حضور المنتقم أمام بابك.

ثم أمر البارون بايقاد المصابيح وزيادة عدد المشاعل ثم قال لجميع رجاله : إذهبوا لتستريحوا . ولبث وحده مع الغريب .

وفى منتصف الليل تزعزعت أبواب القصر، وسمع لها صوت كصوت الأعاصير الهوج، وسمع صائح يقول : أسلموا إلى أسيرى دانيشمند بن على. ثم سمع باب القصر صوت نافذة تفتح وعرف صوت سيده وهو يخاطب الصائح المنذر وكان الليل حالكا فلم يستطع أن يميز أحد المتكلمين، وكان الحديث بينهما بلغة غير مفهومة .

وبعد خمس دقائق استأنف الصائح حديثه باللغة الألمانية قائلا :

— إذن أؤجل تنفيذ حقى سنة ويوماً بشرط أن أنفذ الواجب وألا ترفض بعد ذلك أو تعارض فى تنفيذه .

ومن هذا اليوم استقر الفارسى فى قصر أرنهيم

ولم يتمد بابه ، وقد ركز لهوه وعمله فى مكتبة القصر ومعمل البارون الذى يشتغل معه فيه عدة ساعات متتابعة .

لم يجد سكان القصر فى سيرة الساحر الفارسي نبأ يلام عليه ولكنهم لاحظوا أنه لم يقم بشىء من شعائره الدينية كما أنه لم يحضر أية حفلة دينية . وفضلا عن ذلك كان دانيشمند مواظباً على صلاته الفردية وقد صنع مصباحا من الفضة بشكل بديع ووضعه على عامود صغير من المرمر ونقش على قاعدته سطوراً أشبه بالهيروغليفى ، ولم يعلم أحد إلا البارون بأى مادة كان يغذي هذا المصباح لأن لهبه كان نقياً جداً يفوق أنواع اللهب المعروفة بعد الشمس .

وقد لاحظوا على الغريب أنه فى غاية الحشمة والشدة ، كثير الصوم والصمت لايحادث إلا البارون عند الضرورة ، كان كريماً لايعوزه المال فلذلك احترمه الخدم دون خوف .

أعقب الربيع الشتاء وأتى بعده الصيف فتفتحت أزهاره ثم أقبل الخريف بثماره فنضجت وتساقطت وكان بالعمل حاجب يساعد البارون عند الحاجة إليه وقد سمع الفارسى يقول للبارون :

— يحسن يابنى أن تصغى إلى أقوالى لأن الدروس التى ألقيتها عليك تنتهى الآن ، ولا سلطة فوق الأرض تستطيع أن تؤخر طويلا ماقدر علىّ .

— وا أسفاه يا أستاذى ! أيجوز أن أحرم دروسك حينما أحتاج ليدك لتضعنى فوق ذروة معبد الحكمة !

— لاتيأس يا ولدى فستقوم ابنتى بإتمام دراستك حتى تبلغ الغاية ، وستحضر هنا لهذا الغرض . ولكن تذكر جيداً أنك إذا أردت أن تخلد اسمك وجب عليك أن تحفظها عندك كمساعدة لتعليمك . وإن كان جمالها ينسيك أنها ما خصصت إلا لتعليمك فانك ستقبر مع سيفك وفرسك وتكون آخر سلالة بيتك من الذكور ، وستحدث لك مصائب أخري لأن هذا الزواج لاتنتج منه نتيجة سعيدة .

— سه فانهم يراقبوننا .

ولما أتم دانيشمند إقامته فى القصر خرج منه راكباً جواداً كالسياح وودعه البارون والأسف ملء فؤاده ، فطمأنه الحكيم وقال له بصوت منخفض سمع منه هذه الجملة :

— سنكون على مقربة منك وقت ظهور أشعة الشمس الأولى فاعطف عليها ولكن لا تتورط فى عطفك .

ثم سافر بعد هذه الكلمات ، ولم ير بعد هذا اليوم ، ولم يتحدث عنه أحد فى ضواحى القصر .

وخلافا لعادته جلس فى البهو الكبير ولم يدخل المكتبة ولا المعمل الذى حرم التمتع فيه بمصاحبة أستاذه . وبعد ماغسل وجهه وأصلح من هندامه انتظر إلى أن ظهرت أشعة الشمس ودخل معمله وخلفه أحد الخدم فوقف على الباب لحظة وفكر في صرف خادمه ، وتردد فى فتح الباب ثم صمم على الدخول كمن ينتظر أن يرى شيئاً غريباً . وحينما دخل وخادمه وراءه ، دهش من المفاجأة الغريبة التى واجهها بشىء من الذعر لأنها وإن كانت عجيبة ولكنها محبوبة تسر الناظرين .

لم ير البارون المصباح الفضى على قاعدته بل شاهد مكانه غادة فتانة مرتدية حلة فارسية قرمزية اللون حامرة الرأس كستنية الشعر وقد عقدته بشريط أزرق وثبتته بأعلى جبينها بمشبك ذهبى يزينه فص ثمين من عين (١) الشمس المتعدد الألوان وكان يعكس بين ألوانه لونا أحمر كالنار .

(١) حجر كريم يسمى بالفرنسية Opale

كانت هذه الفتاة متوسطة القامة ممشوقة القد باعتدال وجمال ورشاقة ، تلبس سراويل فضفاضة ربطت أطرافها فى كعبيها، صغيرة الرجلين، وترى تحت طيات ثوبها ذراعان وبدان آية فى الجمال والانسجام، وكانت سحنتها تدل على النشاط وقوة التعبير وحدة الذكاء ، ولها عينان سوداوان يعلوهما حاجبان انتظم قوساهما وترجحت أطرافهما ، وفم صغير وشفتان قرمزيتان علاهما الابتسام الخفيف كأنهما توشكان أن تتلفظا بالقول .

ويظن لأول وهلة أن الكرسى الذى كانت واقفة فوقه لايستطيع أن يقل حملا جسيماً ولكنها كانت عليه فى غاية الطمأنينة والخفة كعصفور حط من الجو على فريع وردة . وحينما دخلت أشعة الشمس الأولى من النافذة المواجهة لهذا الكرسى زادت هذا التمثال الحى بهاء وجمالا، وكانت ساكنة كالمرمر، ولم تظهر أنها لمحت حضور البارون إلا بسرعة تنفسها واحمرار خديها وابتسامها الساحر الهادىء .

لم يكن البارون يتوقع أن يصادف مثل هذا الجمال الفتان فانبهر عند مشاهدتها ولبث لحظة ساكن الحركة، وأراد أن يحسن مقابلة زائرته فتقدم إليها باسطاً ذراعيه ليساعدها على النزول ولكنها لم تقبل منه غير مساعدة يده وقفزت بكل خفة على الأرض كأنها من الميكانيات الجوية ثم قالت :

— لقد جئت طوعا للأمر الذى تلقيته ويجب أن تثق أنك ستجد منى معلمة جادة، وآمل أن أرى فيك التلميذ المجتهد المتيقظ .

وبعد حضور هذه الفتاة الفتانة حصل تغير عظيم فى قصر أرنهيم . قبلت إحدى السيدات وهى ابنة كونت من أقارب البارون أخفى عليها الدهر أن تشرف على خدام القصر ، ولتبعد الشبهة التى يلصقها به الناس من وجود هذه الفتاة التى أطلق عليها الناس اسم الحسناء الفارسية . فكانت الكونتيس ولدستين لا تفارق البارون حينما يتلقى دروسه من هذه الفتاة التى حلت محل الساحر الشيخ، فكان يدرس معها فى المكتبة أو فى المعمل. وكانت أعمالها غريبة جداً ، كانت ترعب بها بعض الأحيان البارون، وكانت المعلمة لاتقبل مطلقاً أن تعمل شيئاً محرما بل كان علمها لايتعدى الحلال المشروع.

كان أسقف بمبرج يعد حكيما عظيماً فى مثل هذه المواد فزار قصر أرنهيم ذات يوم ليقف على مبلغ ماوصل اليه علم الفتاة هرميون التى ذاع صيتها فى جميع البلاد التى يرويها ابرين . وحينما دارت بينهما المناقشة تحقق من تبحرها فى علوم الدين وقال إنها دكتور فى التوحيد تلبس ثياب راقصة شرقية، وإنه كان يعتقد أن ماقيل فى شأن هذه الفتاة مبالغ فيه فتحقق أنه لايبلغ نصف حقيقة فضلها .

وهذه الشهادة التى لا تجرح قد وضعت حداً للاشاعات السيئة التى دارت حول الحسناء الأجنبية حتى حازت أخيراً عطف الجميع .

وقد حصل تطور جديد فى مقابلات المعلمة وتلميذها فكانت دائماً بتحفظ واحتياط ولم تقتصر على المكتبة والمعمل . فكانا ينشدان اللهو والتسلية فى الحدائق والصيد فى البر والبحر ويحييان الليل فى الرقص .

كانت هذه الفتاة حلوة الشمائل فتانة شائقة الحديث حادة الذكاء فى منتهى اللطف والوداعة والكرم ، وقد وزعت على صديقاتها كثيراً من الحلى

كانت بارعة فى الرقص لخفتها ومهارتها فلا يعتريها أى تعب مهما طال الرقص حتى أن أمهر الراقصين لايستطيع أن يجاريها .

وحينما كانت تجهد نفسها فى الرقص أو الرياضة ويتورد خداها كانوا يزعمون أن فص عين الشمس

الذي يزين مشبك شعرها ولا يفارقها يتطاير منه شرر وألسنة من نار . وقد لاحظ عليها خادمها أنها حينما كانت تغضب يحمر هذا الفص العجيب كأنه يقاسمها تأثرها ، وكانت تتجنب أن تبله بالماء .

ولم تمنع هذه الأقاويل البارون من اقترانه بهذه الفتاة الجذابة وقضاء شهر الزفاف على أفخم شكل . وعاش الزوجان فى هناءة وسعادة . وبعد عام ولدت بنتاً أسمتها سيبيل كاسم والدة البارون ، ثم حددوا ميعاد حفلة التعميد حين تماثل الوالدة للشفاء . ثم دعى الناس من كل فج وازدحم القصر بالأفواج .

وكانت بين المدعوات سيدة عجوز تدعى البارونة ستينفيلد اشتهرت فى كل مكان بفضول غريب وسلف وقحة ؛ ولم تمض عليها بضعة أيام فى القصر حتى جمعت لها خادمتها كل الإشاعات التي ذاعت فى القصر عن البارونة هرميون .

وفى صباح اليوم المحدد للتعميد والناس مجتمعون فى البهو ينتظرون ربة القصر ليذهبوا إلى الكنيسة شجر خلاف بين البارونة التى سبق الكلام عليها وبين الكونتس ولدستيتن لأسبقية المقام فحكموا البارون ليفصل بينهما فحكم لصالح الكونتيس . فغضبت البارونة وأمرت باحضار جوادها فى الحال ثم ركبت هى وأتباعها وقالت :

— إننى أترك قصراً لا تقبل مسيحية صالحة أن تدخله . أغادر قصراً صاحبه ساحر وصاحبته شيطانة تخشى أن تبل جبينها بالماء المبارك .

ثم تقدم البارون بضع خطوات وقال : أيها الفرسان والنبلاء ! هل فيكم من يشهر سيفه ليزكي كذب البارونة الفاضح الذى تقايأنه ضد زوجى وقريبتى .

رفض الجميع أن يدافع أحد منهم عن افتراء البارونة ستينفيلد وأعلنوا أنه كذب وادعاء .

وبينما كان البارون يتكلم كانت الكونتس ولدستيتن تصدر منها إشارات قلق وحيرة ، ولما انفضت الجماعة من حوله اقتربت منه وقالت له : كن بصيراً ولا تعمل شيئاً فيه مجازفة ، واعلم أن فص عين الشمس فيه سر عظيم غريب .

— هل أنت أيضاً حمقاء ؟

وفى هذه الآونة دخلت البارونة ووجهها شاحب من النفاس فسلمت على المدعوين ثم أقبل البارون ورجا منها أن تدعو الحضور للذهاب إلى الكنيسة وكان الصبي محمولاً على محفة فاخرة تحملها أربع فتيات .

ولما دخل البارون الكنيسة غمس أصبعه فى ماء المعمودية ودهن جبين البارونة وأراد أن يفند افتراء البارونة ستينفيلد بطريقة غير طاهرة فأسقط نقطة من أصبعه على الفص فانفجر منه لهب متوهج كالشهب الساقطة وفقد لألاءه وأصبح كالحصاة ؛ وسقطت فى الحال البارونة على رخام الكنيسة وهى تئن أنيناً شديداً من الألم . ذعر المدعوون من هذا المشهد وحملوا البارونة إلى غرفتها . وفى هذه الفترة القصيرة حصل تغير عظيم فى ملامحها وضعف نبضها ثم رجت منهم أن يتركوها مع زوجها ، ثم جلس بجانبها ساعة وخرج وأقفل الباب بالقفل ورجع إلى الكنيسة وركع بكل خشوع أمام المحراب ساعة

وحينما أقبل الأطباء طلبت الكونتيس ولدستيتن من البارون مفتاح الغرفة فناولها إياه قائلاً : لا فائدة من أى إسعاف ؛ وطلب منها أن يغادر القصر المتخلفون

ولما فتحوا الغرفة لم يجدوا فى السرير غير حفنة من رماد كالذى يتخلف من إحراق ورقة . وعندئذ أعلنوا الجنازة وأقاموا الشعائر الدينية .

وبعد ثلاث سنين ، وفى نفس هذا اليوم توفى البارون ودفن فى ضريح الكنيسة بالقصر ودفن معه سيفه وخوذته وترسه وكان آخر الذكور من أسرته .

محمد كامل حجاج